المحاكمات التاريخية الكبرى

٣ ـ الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صفحات الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تلك هي الوثيقة التاريخية المؤثرة التي وجهتها اللجنة التنفيذية إلى القيصر الجديد ؛ ولكنها لم تحدث أثراً . ولم تكن الدوائر القيصرية تفكر في النزول عند نذير المرهبين ولما يجف دم الجريمة الرنانة التي كانت في الواقع ذروة الارهاب السياسي ؛ ومن ثم فقد ردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع والإمعان في مطاردة المرهبين والثوريين ، وقبض خلال شهر مارس في بطرسبرج على عشرات منهم ، ولكن لم يقدم في النهاية إلى المحاكمة القضائية سوى ستة هم أندرى جليابوف وصوفيا بيروفسكايا ونيكولا كبالتشش وجيسا هلفمان وتيموتي ميخايلوف ونيكولا ريسا كوف وبدأت المحاكمة في ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ أمام محكمة عليا ألفت من ستة من الشيوخ وعضوين يمثلان النبلاء هما الكونت بوبرنسكي والبارون كورف ، وممثل للتجار ، وممثل للفلاحين ، وعمدة موسكو ، وممثل لبطرسبرج ؛ وتولى الرياسة الشيخ فوكس ، وتولى إجراءات الاتهام النائب مورافييف الذي غدا فيما بعد وزيراً للعدل .

وكان أهم المتهمين في تلك القضية الشهيرة هما بلاريب جليابوف وصوفيا بيروفسكايا عضوا اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب وهما في الواقع مدبرا الجريمة ورأسا الحركة الإرهابية يومئذ ؛ وكان جليابوف من أقطاب حزب إرادة الشعب وأعظمهم نفوذاً وكان يومئذ فتى في الثلاثين من عمره ؛ وكان مولده في أسرة من الأرقاء ، ولكن الرقيق حرر وهو طفل فتفتحت أمامه آفاق جديدة ، وتلقى تربية حسنة ، وتخرج في مدرسة الحقوق في أودسا وشغف منذ حداثته بالأدب الثوري والنظريات الاشتراكية والتحريرية ، ولم يلبث أن لفت أنظار السلطات ، واعتبر في سلك المحرضين الخطرين ونفي من أودسا . فذهب إلى كييف وهنالك اتصل بأسرة غنية كان يعطي لولدها درساً وتزوج من ابنتها « أولجا » وعاش حيناً في هدوء وعزلة ، ولكنه لبث مع ذلك متصلاً بالأوساط الثورية ، ولما اضطرمت الحركة الثورية في سنة ١٨٧٤ ونزل إلى ميدانها ألوف من الفتية والفتيات الذين ألهبت عقولهم وأرواحهم النظريات التحريرية الحديثة ، نظمت القيصرية من جانبها حملة القمع الذريع وقبض على ألوف من الدعاة والمحرضين وعقدت المحاكمات الرنانة تباعاً ؛ وكان منها المحاكمة الشهيرة التي عقدت في بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقدم فيها إلى المحكمة ١٩٣ متهماً بينهم جليابوف وبيروفسكايا ، ولكن جليابوف برئ ؛ وما كان يغادر سجنه حتى اجتمع مع أقطاب زملائه وأسسوا حزب « إرادة الشعب » وقرر الحزب أن يلجأ إلى سلاح الارهاب السياسي . وفي أغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية إعدام القيصر اسكندر الثاني حسبما قدمنا ؛ ودبرت لذلك عدة محاولات متوالية ولكنها أخفقت . وكان جليابوف رأس اللجنة المدبر وكان يوجه الحزب بنفوذه القوي إلى ميدان النضال العنيف وكان شجاعاً لسناً قوي العزم والارادة لا يحجم عن شيء . وكان وقت المحاكمة كما قدمنا فتى في الثلاثين من عمره ، مديد القامة ، قوي البنية . وسيم الطلعة ، حلو الحديث ، يميل إلى الدعابة ويتدفق حين الجدل فصاحة وبياناً .

وكانت صوفيا بيروفسكايا تنتمي إلى أسرة عريقة شغل كثير من أعضائها مراكز كبيرة في الدولة ؛ وكان والدها حاكماً لمقاطعة سنت بيترسبرج ، ولكنها آثرت منذ حداثتها حياة الحرية والمغامرة ، فغادرت منزل الأسرة إلى العاصمة وتلقت تربيتها في إحدى مدارس المعلمات ، ثم عينت بعد ذلك معلمة في إحدى مدارس الأقاليم ؛ ولكنها لم تجنح إلى السكينة والعزلة بل اتصلت بالحركة الثورية ، وقبض عليها لأول مرة بتهمة التحريض وهي دون العشرين . ولما أفرج عنها اشتغلت مدى حين ممرضة في أحد المستشفيات ثم قبض عليها مرة أخرى في قضية بطرسبرج الكبرى مع جليابوف وزملائه فبرئت ، ولكنها نفيت إلى إحدى المقاطعات الشمالية . بيد أنها تمكنت من الفرار وعادت إلى العاصمة حيث التحقت عضواً بحزب « إرادة الشعب » . وكانت حينما

بض عليها فى مارس سنة ١٨٨١ فى السابعة والعشرين من عمرها لكنها كانت تبدو بنظراتها الساحرة وعينيها الخضراوين وحياها وسيم أصغر بكثير من عمرها ؛ وكانت صوفيا تحب جليابوف باً جماً وتزعم خطاه ومغامراته بعزم مدهش ؛ وكان هذا حبها ول والأخير . وكان جليابوف يبادلها هذا الحب المضطرم وكانا يشان معاً فى أفق ساحر من الجوى والمثل الثورية .

أما عن باقى المتهمين فكان كيالتشش مهندساً فى نحو الثلاثين ن عمره ؛ وكان ميخايلوف عاملا فتى من عمال المعادن ؛ وكانت سيا هلفمان فتاة من أسرة متوسطة تخرجت في مدرسة القابلات م تكن حسناء ولكنها كانت مخلصة مطبوعة ، وكان تعمل فى لبعة اللجنة السرية وتدير المنزل الذى يجتمع فيه الأعضاء .

بقى ريسا كوف ، وقد كان فتى حدثاً فى التاسعة عشرة مي إلى أصل متواضع ؛ وكان وقت القبض عليه طالباً بمدرسة اجم يعني بث المبادئ الثورية بين العمال ؛ وكان أهم متهم فى ضية بعد جليابوف وصوفيا بل كان مفتاح القضية فى الواقع ث أنه قبض عليه متلبساً بجريمته على أثر إلقائه القنبلة الأولى ، موكب القيصر ، وقد رأى فيه النائب المحقق دبرجنسكى منذ لساعة الأولى فريسة سهلة ، فمال عليه بالاغراء والألفاظ المعسولة ستطاع أن يحمله على الاعتراف بكثير من الوقائع والمعلومات مة المتعلقة بالجريمة وحزب إرادة الشعب ، وكان ريسا كوف هائم الذهن ، مضطرب الأعصاب ، فكان تارة يدون اعترافاته حقق وتارة يحاول تأييد مسلكه ؛ وقد نشرت أقواله فيما بعد كتيب صغير ضمن ما نشر من وثائق هذا العهد ، وهى أقوال ح فتى هائم يتخبط بين الرغبة فى التمسك بمبادئه ومثله ، وبين ع الذى يثيره فيه شبح الموت ، ويقص ريسا كوف فى كراته كيف كانت مشاعره الحساسة التي شحذتها طفولة ة تتأثر أيما تأثر بما يراه بين الفلاحين والعمال من مناظر س الطبق ، وكيف ترك لقاءه الأول لجليابوف فى نفسه أعظم ، وكيف أذكى لجليابوف في نفسه عاطفة الكفاح ، فانضم إلى عة المرهبين ، وارتكب جريمته على أنها عمل مجيد .

— ٤ —

ودام التحقيق زهاء ثلاثة أسابيع ، وفى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ بدأت المحاكمة الشهيرة أمام المحكمة العليا التى ألفت كما قدمنا من ستة من الشيوخ وعضوين من النبلاء وعضو عن التجار وعضو عن الفلاحين اختارتهم المحكمة وعمدة موسكو ؛ وتولى رآستها الشيخ (السناتور) فوكس وتولى مهمة الاتهام النائب مورافييف ؛ واعترف جميع المتهمين بانتمائهم إلى حزب إرادة الشعب واشتراكهم فى تدبير المؤامرة وتنفيذها ، ما عدا جيسيا فانها أنكرت قيامها بأى عمل إيجابى ، وميخايلوف فانه اعترف بانتمائه إلى فرقة المرهبين ولكنه أنكر اشتراكه فى تنفيذ الجريمة .

وكان اعتراف جليابوف بالأخص وافياً مؤثراً ، فذكر أنه عضو فى اللجنة التنفيذية وأنه انضم إلى الحزب نزولا على إيمانه وعقيدته ، وأنه وهب حياته منذ أعوام لخدمة قضية الحرية ، ثم قص فى بلاغة وقوة على المحكمة تاريخ أعمال اللجنة التنفيذية وما دبرته من مختلف المشاريع لازهاق القيصر ، واعترف بأنه هو الذى دبر مؤامرة أول مارس ، وأنه هو الذى اختار المنفذين لها من بين المتطوعين الفدائيين ، ولكنه حاول جهده أن يبرىء ميخايلوف من تهمة الاشتراك .

وسمعت المحكمة عدة شهود من الشرطة وحجاب المنازل التى كان يتردد عليها المتهمون وعدداً كبيراً من الضباط والمخبرين الذين شهدوا مصرع القيصر ، وبعض زملاء ريسا كوف وأساتذته ، فنوهوا جميعاً بذكائه ورقة خلاله . وسمعت تقارير الخبراء عن خواص القنابل والمفرقعات التى استعملت فى الجريمة ووقفت المحكمة بذلك على كثير من تفاصيل الحادث وسير الحركة الثورية .

وألقى النائب مورافييف ممثل الاتهام مرافعة قوية عنيفة ، فقدم المتهمين فى صورة مجرمين من أروع طراز ، وأبالسة من البشر ظمئين إلى الدم ، وحمل على الحركة الثورية وعلى مثلها ودعاتها بشدة ، وقال إن هؤلاء القتلة لا محل لهم بين مخلوقات الله وإنهم من عناصر الهدم والفوضى يُعَبدون طريقهم بالقتل ، وإن الوطن الروسى الذى خضبوه بدم القيصر الثمين قد عانى كثيراً من أعمالهم ، فعلى روسيا أن تصدر حكمها عليهم في شخص هذه المحكمة وليكن مصرع أعظم الملوك خاتمة حياتهم الاجرامية .

ثم جاء دور الدفاع ؛ وكان الدفاع مهمة شاقة أمام هذا القضاء المسير وهذه المحكمة التي عقدت لأداء مهمة معينة . وكان شاقاً بالأخص أمام اعتراف المتهمين الشامل ؛ ولم يكن للبواعث المعنوية والمثل العليا اعتبار في هذا الجو الخانق . ومع ذلك فقد قام الدفاع بمهمته التقليدية ، فتولى الأستاذ أونوفسكي الدفاع عن ريسا كوف وصور للمحكمة عقلية المتهم الفتية الساذجة ورجا المحكمة أن تراعي في تقديرها لجرمه حداثة سنه واضطراب أعصابه . ودافع الأستاذ خارتولاري عن ميخايلوف فنفند أدلة اتهامه ، وبين أنها فيما عدا أقوال ريسا كوف لاتنهض دليلا على اشتراكه . وأن ريسا كوف لم يكن متزناً ولامتفقاً في أقواله . ودافع الأستاذ جركي عن جيسيا هلفمان وبين أنها لم تقم قط بأي دور إيجابي في هذه المحاولات الاجرامية ، وأن كل ماقامت به هو أنها كانت تؤجر المكان الذي اعتاد المتهمون أن يعقدوا فيه اجتماعاتهم . ودافع الأستاذ جيراردي عن كالتشنش وشرح للمحكمة العوامل والظروف القاسية التي دفعته إلى سبيل الاجرام .

وتولى الأستاذ كدرين الدفاع عن صوفيا بيروفسكايا ؛ وكانت مهمة فادحة لا تبعث إلى شيء من الأمل ، فقد لبثت صوفيا حتى آخر لحظة متمسكة باعترافاتها ، واضطر الأستاذ كدرين أن يلجأ في دفاعه إلى ضروب من البلاغة المؤثرة ؛ فصور صوفيا فتاة وديعة هادئة تجيش بأعظم حب لوطنها ، وتعتقد بإيمان راسخ أن المثل الثورية هي سبيله الوحيد إلى الخلاص والمجد ؛ واستعرض نشأتها النبيلة ، وحياتها المضطربة ، ومثلها العليا ؛ وبين أنها لم تنزلق إلى الجريمة إلا مدفوعة بحبها للوطن .

أما جليابوف فقد آثر أن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه . وكان دفاعا رنانا تردد صداه خارج روسيا ، ووصفه مكاتب « التيمس » في بطرسبرج بأنه أعظم ظاهرة في القضية . وكان جليابوف يتدفق منطقاً وبياناً ؛ وكانت أقواله محاضرة فلسفية وسياسية مؤثرة ، واستهل جليابوف دفاعه بقوله : إن المبادئ بالنسبة لأولي المبادئ أثمن لديهم من الحياة ، وفند مطاعن النائب العام في مبادئ حزب إرادة الشعب ، وبسط مثل الحركة الثورية وغاياتها . ثم عطف على المسائل العنيفة التي تلجأ اليها الحركة الثورية ، فذكر أنها ليست إلا مهمة من المهام العديدة التي يتطلبها تطور روسيا ، وأنه يجب لكي تفهم غايات الحزب ووسائله أن يدرس ماضي هذا الحزب ، وهو ماض قصير ولكنه حافل بالتجارب . وسترى المحكمة متى استعرضت كتاب حياته المفتوح أن أصدقاء الشعب الروسي لن يعمدوا دائماً إلى إلقاء القنابل ، وإننا قد عرفنا خلال نشاطنا أحلام الشباب الوردية . وإنه ليس خطأنا أن يكون هذا العهد قد انقضى .

« وإن حياتنا القصيرة التي قضيناها بين الشعب قد كشفت لنا عن حقيقة آرائه وآماله ، وعرفنا من جهة أخرى أن هنالك في ضمير الشعب كثيراً من العناصر التي يجب تأييدها . وقد عولنا على أن نعمل باسم المصالح التي أخذ الشعب يشعر بها ؛ وليس باسم النظريات الخالصة . وقد رأينا سبيلنا العملية إلى ذلك أن ندبر مؤامرة لاحداث انقلاب حكومي ؛ ونظمنا لذلك القوى الثورية أتم تنظيم . وقد كانت مهمتي الشخصية ومقصد حياتي أن أخدم الصالح العام . وعملت لذلك طويلا بالوسائل السلمية ولكني أيقنت في النهاية أن الالتجاء إلى العنف أمر محتوم » .

« للبحث بقية — النقل ممنوع »

محمد عبد الله عنان

علم التاريخ

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع الرسالة السابعة من خلاصة العلم الحديث وموضوعها « علم التاريخ » وهو تبحث في التاريخ من حيث هو علم ، وفي أغراضه وطرائقه وتاريخه من أقدم العصور وفوائده وعلاقته بغيره من العلوم ، وضعها بالانجليزية الأستاذ هرنشو وترجمها وعلق حواشيه وأضاف إليها فصلا في التاريخ عند العرب

الأستاذ عبد الحميد العبادي

وثمن الكتاب ٨ قروش صاغ عدا أجرة البريد

ويطلب من دار اللجنة رقم ٩ بشارع الكرداسي

ومن المكاتب الشهيرة